

الهجرة إلى المدن السفلى

1

كنتُ الرأس المغلق
أحمل حزن العالم في جهة في القلب
وفي الجهة الأخرى
شكل امرأة ترفُضُ وَجْهي
أتغرب في الكُتُب الصفراءِ
أمد إلى من يشرح خط الكف يدي
وأعطي الجوع بركعه
تنفسُ أيامي والدمعةُ تبقى.. دمعه
محروق الجبهة أطلع من رحم التاريخ
راياتي: الجنس - الجوع - الأفيون
أتحول جسما ينخره الطاعون
لا أعرف إلا أن أتحدى من يسرق من عيني
وجه المعشوقة
لكني أصفر إذا أحرقت الأخضر واليابس
خيلُ المأمون
كنت الرأس المغلق
تعبرُه نسمات الصيف ولا تتحرك شعرة
- أين تركنا السيرة يا جدي؟

- (قال المعتصم لملك الروم: إن أخسّ ناحية
عليها أخسُّ عبيدي، خراجها أكثر من خراج أرضك)
- قل يا جدي بالله عليك:
من قطع أطراف الحلاج؟

2

جدي كومه شيب أنبتها نكران الذات
قارب إيمان، جدي
وجه في لون الحنطة والقمح
يقطن أعلى جبل في الأرض.. بنى في القمة خلوة
لا تمتد إليها عين من السفح
علمني أن أكره سكان الأرض.. ولا أعشق
غير الله ومن يملك أمر الناس!
علمني أن الخالق في الجوهر
والجوهر في المطلق
صفة الخالق أحوال تظهر فيها الذات
إذ لا تنفصل الأحوال عن الجوهر
قال أبو هاشم:
من يُنكر أحوال الخالق، في اللجة يغرق

(وما سبب الخصومة فإنها حكاية مشهورة ومعلومة.
قال جدي: صفات لله أربع: القادرية والعالمية والحيثية

والموجودية. وحين سألته عن الإنسان قال: كيس من الغائط،
لا يتطهر إلا بحب الله. قلت: قدره. قال: لا. قلت للإنسان
صفتان: ظالم أو مظلوم. فنهض جدي غاضبا ولزم داره. ولم
يكلمني!!)

قُلْ يا جدي بالله عليكُ
من باعد ما بين الخبزة والجائع؟
من أحرق وجه مدينتنا إذ ثار الزنج؟

3

هل كنت سوى حفنة حزن غرّبتها التّسألُ
يحفّر ظهري السوطُ - النعلُ - الرمحُ - الدبّوسُ
إذ أشرق وجهي ذات خريف - أذكرُ -
كانتُ خيلُ الوالي
سُحبا تجنّمْ في صدر البصرة، تبحث عن شاعر
عدّد من زلّات الناهي الأمرُ
ما لا يُحصيه العدُّ
قلت: الأرض تموجُ، النَّاسُ تموجُ، الأرضُ - الناسُ
فهل أقفل باب القلب أمام الأحياب؟
هل أتزك حجم الخبزة يضّاءل
ما بين الليلة والأخرى
تتناسل أحزان الأهل على رجّع خُطى الجند

ويكبر حجمُ الهيبة في أعماق الدور؟
هل أترك رائحة الجُثث المرمية
تخنق أنفاس المعمور؟
لا عشت إذا بات الليلة في وطني جائع

(ضربت بالسوط سنة 270هـ. ثم قطعت يداي.. قال أحد من شاهدوني أجد: إن الوالي أمر
بضربك وقطع يديك لإلحادك، وتحريضك الناس على الفساد، حتى تكون عبرة لغيرك. ثم سألتني
إن كنت أخشى ذلك. قلت لا فلما سألتني عن السبب قلت: مذ خلقت وأنا أجد - وتقطع أطرافي ثم
لا تلبث أن تنبت كما تنبت أجنحة البازي)

وجهُ البصرة محروقٌ / وجهُ البصرة يعرفني
قَطَّعَ جسدي
ألون القاتم في عينيَّ بشارةً عيدُ
يُقبلُ من جهة الشرق على صهوات الريح . . .
ودقَّاتِ دُفوف النَّسوة
وغداً.. يُقبل من كل جهات الأرض
يأخذُ يوماً شكل الريح ويوماً
يأخذُ شكل النار
تحرق ما شُيِّد من أسوار

زمني هذا.. تصعُرُ فيه الخُبْزة، لكن السوط يطولُ.
مُنْفَتْحاً أتوالدُ في كل بقاع الكُرة الأرضية
وأمدّ عيوني.. يغشاها النورُ
أخرجُ من ذاتي طفلاً في حجم الغضب المتعقُ
في أعماق الديجورُ
يجهل سفسطة المشلولين على عتبات الخماره
لكن يعرف ما خبأت المدن المقرورة من أسرار
أخرج من جلدي
أطرافي نبتت في الجسد الفارع كالنخلة
أتجددُ منفتحاً كي أترك جسمي يسقطُ من أعلى
أنشق رائحة التربة والقمح، أصير النخلة
تمتد جذوري - دمعة أحبابي تسقيها -
يؤلمني شيء كالمُدية ينغل في الرأس
إذ أبصر آثار السوط على الأشياء المشويّة تحت الشّمس
المُحهم يأتون مع الريح: أحبائي الزنج
يأتون مع الغضب القتالُ
أفنج في أوجههم أبواب المدن المقروره
أمطر.. أمطر.. أمطر يا غيم
عادت خيلُ الزنج فما انكسرت
إلا حلقات الضيم
أمطر.. أمطر.. أمطر يا غيم

راجع، عبد الله
الهجرة إلى المدن السفلى (ص. 21 – 26)
1976، مطابع دار الكتاب، الدار البيضاء